الإنسان بين قوة العقل وقوة النفس

لقد خلق الله عز وجل الإنسان وفضّله على سائر الخلق وميّزه بالعقل الذي هو مناط التكليف، وبالعقل أعطاه الإرادة والقدرة على التصرف في الكون والحياة، فالعقل أداة الإنسان للإدراك والفهم والتمييز والموازنة ثم بعد ذلك الاختيار الحر، قال تعالى « : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا .....»سورة الإنْسان(٣)

وقوله تعالى «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا.....»سورة الكهف (٢٩)

وقد رُوي في الأثر أنه«ما اكتسب المرء مثل عقل يهديه إلى هدى أو يُرْدِيه عن رَدَى»، ويُنسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال «أصل الرجل عقله، فبقدر عقله تكون عبادته لربه»؛ وللعقل في حياة الإنسان، دوره الحيوي في مختلف أنشطته، وشيوع استخدام المنهج العقلي في البحث العلمي، وتوجيه السلوك الإنساني وإشباع الدوافع الكامنة بطرق مشروعة، وحبس وتقييد النفس ومنعها من فعل ما تهواه والحد من قوتها وقدرتها على جذب الإنسان إلى إشباع الشهوات بطرق غير مشروعة، ومن ثم فإن العقل والنفس قوتان يحاول كل منهما جذب الإنسان إلى منهجه الذي يؤمن به، فالنفس منهجها الشهوات مهما كان الأمر ولا تبالي بواقع أو قيم أو مبادئ إذ لم يتم تزكيتها، والعقل منهجه المنطق ومراعاة الواقع والقيم والمبادئ السائدة في المجتمع، ومن ثم فإن النفس والعقل متضادان، فإذا كان منهج العقل كما سبق أن ذكرنا المنطق ومراعاة الواقع والقيم الأخلاقية التي تعارف عليها المجتمع، فإن النفس لا تدرك الواقع وتؤمن بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، ومن ثم فهي أشد عدواً للإنسان، وفي هذا الموضع يقول الماوردي في كتابه «أدب الدين والدنيا»:

إعداد:
د. الجميل محمد عبد السميع

«إن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغني محمودها عن التأديب ولا يُكتفي بالمُرضي منها عن التهذيب لأن لمحمودها أضداد مقابلة يسعدها هوى مُطاع وشهوة غالبة» (الماوردي، ص ٢٤١) ،ويواصل حديثه قائلا: «وأما الهوى (يعني النفس(فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد، لأنه يُنتج من الأخلاق قبائحها ويُظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكا، ومدخل الشر مسلوكا» (الماوردي، ص٢٤١) وَرُوِيَ في الأثر أن: «طَاعَةُ الشَّهْوَةِ دَاءٌ، وَعِصْيَانُهَا دَوَاءٌ»، وعلى الرغم من أن العقل ضد النفس يراعي الواقع والقيم الأخلاقية إلا أن العقل وحده لا يكفي ولكن لابد من الوجه المكمل له في إعداد الشخصية السوية وهو الأدب الذي يتمثل في التنشئة الاجتماعية التي من خلالها يتشرب الفرد القيم والمبادئ الذي يُكوّن منها نظريته الشخصية فتكون له مرجعا في كل شيء.

والمتأمل في النفس وما تفعله والشيطان وما يأمر به يجد أن هناك علاقة بين النفس والشيطان، فالنفس باتباعها الهوى تجذب إليها الشيطان فتأخذ بتوجيهاته وأوامره ويظل يوسوس لها فتطيعه، فيتعطل العقل عن القيام بوظيفته التي خلقه الله من أجلها، ويجد الشيطان مرتعا يرتع فيه ويظل حتى يستأنف العقل عمله مرة أخرى، فقد رُوي عن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ من العروق».

وكما أن هناك علاقة بين النفس والشيطان فإن هناك علاقة بين العقل والقلب، فالعقل يأخذ توجيهاته من القلب، حيث إن القلب به مخزون القيم الأخلاقية والمبادئ الذي تعارف عليها المجتمع، والعقل دائما يكون رقيبا على النفس، فإذا ما انحرفت بعيدا عن هذه القيم أبلغ العقل القلب فيُصدر أوامره بكبت هوى النفس، ومن ثم فإن العقل دائما لا يَرضَى عما تفعله النفس حسب هواها؛ وهنا يثور تساؤل وهو: إذا كان العقل دائما لا يرضى عما تفعله النفس أي أنه دائما يكون معها في نزاع، فلماذا تقوم النفس بتنفيذ ما تهواه في بعض الأحيان؟، والإجابة أن القرار لحسم النزاع بين العقل والنفس يكون للقلب،

ويكون القرار حسب نوع القلب، فعندما تهم النفس التي يمثلها الهو أو الهي في الجهاز النفسي عند فرويد بشهوة معينة يقف أمامها العقل والذي يمثله الأنا في الجهاز النفسي فينهاها عن فعل هذه الشهوة فتصر على فعلها فينشأ النزاع بينهما فيحتكمان إلى القلب الذي يمثله الأنا الأعلى في الجهاز النفسي، فإذا كان القلب أجرد كان حُكمه لصالح العقل فتقوم النفس بكبت هذه الشهوة، وأما إذا كان القلب أغلف أو منكوس فإنه يحكم لصالح النفس فتتبع الهوى وتفعل ما تشاء دون مراعاة للواقع، وأما إذا كان القلب مصفحا أي فيه إيمان ونفاق فعلى حسب ما يغلب أحدهما على الآخر فإذا غلب النفاق كان حُكم القلب لصالح النفس، وأما إذا غلب الإيمان كان حُكم القلب لصالح العقل، وهذا من وجهة النظر الإسلامية، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ، قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ») مسند أحمد / ج ٢٢ /٢٥٠الحديث. ١٠٧٠٥

وأما من وجهة نظر علم النفس فإن القرار يكون حسب نوع النظرية الشخصية التي كونها الفرد من خلال تنشئته الاجتماعية وارتضاها مرجعا له سواء في اتخاذ قرار أو إشباع رغبة، فإذا كانت النظرية الشخصية للفرد مُقتبسة من القيم الأخلاقية والمبادئ والمعايير الذي ارتضاها المجتمع لنفسه كان القرار لصالح العقل وكبت هوى النفس، وأما إذا كانت النظرية الشخصية تحتوى على القيم المادية القائمة على المصالح الشخصية وإشباع الرغبات بأي وسيلة (أي أن الغاية تبرر الوسيلة) كان القرار لصالح النفس فيُحبَط العقل ويتوقف عن وظيفته، ولهذا فإن القلب هو المحرك الأساسي لشخصية الفرد.

ففي حال نشوب النزاع بين العقل والنفس يقوم القلب بإصدار حُكم لحسم النزاع بين الاثنين، وكما سبق أن ذكرنا فإن القرار يكون على حسب نوع القلب، فإذا كان القلب أجرد كان القرار لصالح العقل فينشط العقل ويتغلب على النفس فتكبت النفس هواها ويبدأ الفرد في تزكيتها فتنتقل النفس من مرتبة أدنى إلى مرتبة أعلى، أي من مرتبة النفس الأمارة بالسوء إلى مرتبة النفس اللوامة، وكلما زاد الإيمان في القلب زادت معه قوة العقل فارتقت النفس من مرتبة النفس اللوامة إلى مرتبة النفس المطمئنة وهي أعلى مراتب النفس، وهنا تمتنع النفس عن فعل ما تهواه، أما إذا كان القلب أغلف أو منكوسا كان القرار لصالح النفس، وعندها يصبح هناك ساتر بين القلب والعقل فيضعف العقل وتتغلب عليه النفس وفي هذه الحالة يستسلم الفرد للشيطان لأن هذا القلب أصبح فاسدا، ويظل هذا الساتر بين القلب والعقل، فيزداد نشاط النفس فتفعل النفس ما تشاء، فيفسد حال الفرد لأن النفس تأخذ أوامرها من الشيطان الذي يجري من الإنسان مجرى الدم من العروق، فيصبح صاحبها أحمق، وقد رُوي في الأثر أن: «الأحمق أبغض خلق الله إليه إذ حرمه الله أعز الأشياء إليه»، ويظل الفرد على هذا الحال حتى يقع تحت طائلة القانون بما يفعله فيتعرض للعقاب، فيبدأ القلب في تغيير النظرية الشخصية الذي يتخذها مرجعا له في كل شيء سواء عند اتخاذ قرار أو إشباع رغبة، فيبدأ الساتر الموجود بين العقل والقلب يتهدم فيفيق الفرد ويبدأ العقل يقوى مرة أخرى فيتغلب على النفس ويستأنف وظيفته التي خلقه الله تعالى من أجلها، ومن ثم فإن العقاب ليس انتقاما ولكنه تهذيب للنفس، يقول الحق تبارك وتعالى»وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ « سورة البقرة (١٧٩)، ولكن يثور تساؤل ألا وهو: هل زيادة العقل عن حد معين تضر بالفرد أم تنفعه؟، في حال زيادة العقل عن حد معين لدى الفرد يقول العرب إنه داهية، وهنا السؤال: هل الداهية عاقل أم لا؟، يقول بعض الحكماء أنه عاقل لوجود العقل فيه، ويقول آخرون لا أُسميه عاقلا إلا إذا كان خَيراً دَيناً لأن الخير والدين من موجبات العقل، أما إذا كان شريراً لا أُسميه عاقلا وإنما هو صاحب رؤية أو فكرة، قال الله تعالى في شأن الكفار»وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ «سورة الملك (١٠)، فالعاقل من عقل عن الله تعالى أوامره ونواهيه، وأما من الناحية النفسية فأرى أنه إذا زاد العقل عن حد معين وخرج عن حدود الإطار المرجعي للمجتمع أصبح عبئا على صاحبه حيث إنه من المحتمل أن يؤدي بالفرد إلى التحرر من الإطار المرجعي تماما، ويقوده إلى الخيال وليس التخيل، وفي غالب الأحيان يؤدي الخيال بصاحبه إلى المهالك، لأن الخيال لا يُبنَى على أساس علمي بعكس التخيل فإنه يُبنَى على أُسس علمية، كما أنه يصبح عبئا على غيره وخاصة إذا كان مسئولا عن مجموعة أو جماعة من الأفراد فإنه يُحَمِلهم ما لا يطيقون، ويُرْوَى في هذا السياق أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أمر أبا موسى الأشعري وكان قد استعمله على الكوفة والبصرة أن يعزل زياداً عن ولايته فقال زياد: أعن مَوْجَدة)أي غضب(أو خيانة فقال عمر: لا عن واحدة منهما ولكن خِفت أن أحْمِل على الناس فضل عقلك ،أي زيادته (الماوردي، ص ١٧)، **وهنا يثور تساؤل آخر ألا وهو: هل لا ينبغي تنمية عقول النوابغ والعباقرة حتى لا يصبح كلّ منهم داهية؟،** والإجابة: لا، ولكن بشرط أن تكون هذه التنمية في ضوء الإطار المرجعي للمجتمع الذي يُحصّن الفرد من المكر والدهاء الذي يتسم به الداهية الذي ليس لديه نظرية شخصية مبنية على المبادئ والمعايير والقيم الأخلاقية، فقد وصف البعض من الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل والأحمق بما فيه من الرذائل، فقالوا: «العاقل إذا والى بذل في المودة نصره، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره، فَيَسْعَدْ مَواليه بعقله ويعتصم مُعاديه بعدله، إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر، وإن أساء إليه مُسيء سبب له أسباب العذر (أي التمس له العذر) أو منحه الصفح والعفو، وأما الأحمق ضَال مُضل، إن أُونِس تكبر وإن مُعاتبته مِحْنَة، ومحاورته كأنها حرب، وموالاته تضر» (الماوردي، ٢١ - ٢٢)، ورُوي في الأثر أن: «الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر» (تفسير حقي، ١٥ / ٢٢٤)، وقد سمعت من أستاذنا الراحل الدكتور رشدي فام وكان عالما ومفكرا يقول: «ينال الجاهل من نفسه أكثر مما ينال عدوه منه».

وبالتأمل فيما سبق يثور تساؤل وهو: هل القلب والعقل والنفس يمثلها الهو أو الهي والأنا والأنا الأعلى عند فرويد؟.

إن الناظر للنفس وما تفعله في اتباعها للهوى والهو أو الهي وما تحتويه من نزعات همجية يجد أنهما وجهان لعملة واحدة، وكذلك الناظر للعقل وما يبذله من جهد لكبت نزعات النفس والأنا وموقفه من الهو أو الهي يجد أنهما وجهان لعملة واحدة فكل منهما يدرك الواقع ويراعي قيم المجتمع، وكذلك الناظر للقلب وما يصدره من أحكام لحسم النزاع الذي ينشب بين النفس والعقل والأنا الأعلى وما يصدره من أحكام لحسم النزاع بين الهو أو الهي والأنا يجد أنهما وجهان لعملة واحدة، ومن ثم فإن النفس يمثلها الهو أو الهي، والعقل يمثله الأنا، والقلب يمثله الأنا الأعلى.

ويختلف الناس عن بعضهم البعض في قدر عقولهم، فقد خلق

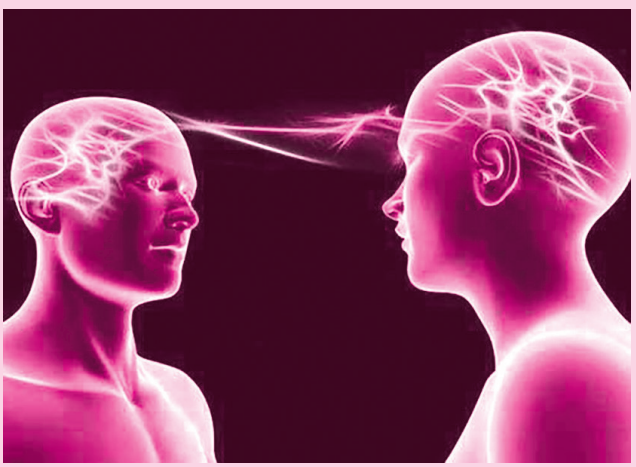

الله تعالى البشر وجعل بينهم فروقا فردية في كل شيء ومنها العقل، فقد رُوي في الحديث عن الحارث: وثنا داود بن المحبر، ثنا ميسرة، ثنا موسى بن جابان، عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال: «جاء ابن سلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني سائلك عن خصال لم يُطلِعْ اللّه عليها أحداً، غير موسى بن عمران، فإن كنت تعلمها فهو ذاك، وإلا فهو شيء خص اللّه به موسى بن عمران، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن سلام، إن شئت تسألني وإن شئت أخبرتك؛ فقال: أخبرني. فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: إن الملائكة المقربين لم يحيطوا بخلق العرش ولا علم لهم به، ولا حملته الذين يحملونه، وإن اللّه عز وجل لما خلق السموات والأرض قالت الملائكة: ربنا هل خلقت خلقاً هو أعظم من السموات والأرض؟ قال: نعم البحار؛ فقالوا: هل خلقت خلقاً هو أعظم من البحار؟ قال: نعم العرش؛ قالوا: هل خلقت خلقاً هو أعظم من العرش؟ قال: نعم العقل؛ قالوا: ربنا وما بلغ من قدر العقل وخلقه؟ قال: هيهات لا يُحاط بعلمه. قال: هل لكم علم بعدد الرمل؟ قالوا: لا، قال: فإني خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل، فمن الناس من أُعطِيَ من ذلك حبة واحدة، وبعضهم الحبتين والثلاث والأربع، وبعضهم من أُعطِيَ فَرَقاً، وبعضهم من أُعطِيَ وَسْقاً، وبعضهم وَسْقَين، وبعضهم أكثر من ذلك، كذلك إلى ما شاء الله من التضعيف؛ قال ابن سلام: فَمَنْ أولئك يا رسول اللّه؟ قال: العُمال بطاعة اللّه على قدر أعمالهم وَجَدهم ويقينهم، فالنور الذي جعله اللّه عز وجل في قلوبهم وفهمهم في ذلك كله على القدر الذي آتاهم، فبقدر ذلك يعمل العامل منهم، ويرتفع في الدرجات . فقال ابن سلام: والذي بعثك بالهدى ودين الحق ما خرمت حرفاً، واحداً مما وجدت في التوراة، وإن موسى لأول من وصف هذه الصفة، وأنت الثاني. فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: صدقت يا ابن سلام». اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة/٦/٩» «الحديث.«٥٢٥٢

وأخيرا هل القلب هو المحرك للعقل؟ أم أن العقل هو المحرك للقلب؟

بالنظر إلى الميكانيكية التي يعمل بها الجهاز النفسي في الإنسان والذي يتكون من (القلب، العقل، النفس)، نجد أن القلب هو المحرك الأساسي لكل من العقل والنفس، فعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ، فما أنكر قلبك فدعه «مجموع فتاوى ابن تيمية/ج ٤/ص ١١٣ .

ومما تواتر من حكمة لقمان أن سيده أعطاه شاة وأمره أن يذبحها، ويأتيه بأطيب ما فيها، فذبحها وأتاه بقلبها ولسانها. ثم أعطاه في يوم آخر شاة أخرى وأمره أن يذبحها ويأتيه بأخبث ما فيها فذبحها وأتاه بقلبها ولسانها. فسأله عن ذلك. فقال: هما أطيب ما فيها إن طابا، وأخبث ما فيها إن خبثا. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم «:ألا إن في الجسد مضغة إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» حياة الحيوان الكبرى، ج ١/ص. ٤١١ -

وفي نهاية هذا المقال: نستنتج مما سبق أن الإنسان بين قوتين) قوة العقل وقوة النفس (وكل قوة تحاول وتبذل قُصارى جهدها جذب الإنسان إليه ونوع القلب هو الذي يحدد القوة التي لها القدرة على جذب الإنسان إليها، وهنا يثور تساؤل ألا وهو: ما دور المؤسسات التربوية في تربية العقل وجعله القوة التي لها القدرة على جذب الإنسان إليها؟، والإجابة هي التركيز على التنشئة الاجتماعية في ضوء الإطار المرجعي للمجتمع التي من خلالها يتشرب الفرد كل من (القيم والمبادئ والمعايير) والذي يُكوّن منها نظريته الشخصية فتكون له مرجعا في كل شيء سواء عند اتخاذ قرار أو حل مشكلة أو إشباع رغبة من الرغبات ومن ثم يكون دائما حكم القلب لصالح العقل، ومن ثم تكون القوة دائما للعقل فيظل مُتغلبا على النفس.

فعن همام بن مصاد قال: دخلت على عمر، وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: «يا بن مصاد إن في الجسد مضغة إليها يأوي خيره وشره فأصلحوا قلوبكم تصلح أعمالكم.»، وعن داود بن عبد الحميد قاضي الرقة عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى بعض عماله: «أنزل رعيتك بمنزل ولدك، فوقر كبيرهم، وارحم صغيرهم، وقوِّم ناشئهم «أنساب الأشراف، ج ٣/ص ٦٢ .

وأختتم مقالي بإحدى وصايا لقمان الحكيم لابنه: ومن وصيته لابنه: يا بُني كن على حذر من اللئيم إذا أكرمته، ومن الكريم إذا أهنته، ومن العاقل إذا هجوته، ومن الأحمق إذا مازحته، ومن الجاهل إذا صاحبته، ومن الفاجر إذا خاصمته، وتمام المعروف تعجيله (حياة الحيوان الكبرى ج ١ / ص ٤١١).